الفن والأدب

في حضارة مصر اليوم

لمراسل « س »

(٣) نظرة مجملة في أقسام الأدب

الادب الحديث في جوهره أصبح الآن في مصر منه في كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمناحثات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الادبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ، ولا مستقبلية ، ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم مما سبق ذكره ، وإن نشطت الخصومات في التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسموه الادب المستور والادب المكشوف . وفي ما عدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة

الشعر والنثر

الأدب النثري يسبق الأدب الشعري بمراحل . ألصعوبة التجديد في الشعر العربي ؟ لست أدري ولكني أدري ان كثيراً جداً من القصائد التي تنشر كلا أو مجاملة بالصحف قد كان يمكن أن تنظم في أي عصر من العصور الغابرة ، وما زالت قصائد « للمدح » شائعة عندنا . واذا استثنينا فئة صغيرة من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة ويطلقونها في نفس جديد ولو في صيغة قديمة في الغالب — فيمكننا ان نقول بأننا لا نلمح في الشعر الحد الحاسم الجلي الذي نراه في النثر ولئن انضجت الحركة القومية عدة مواهب شعرية فأنها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بجبروته الفني فأرسل الصيحة التي تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحاً مبيناً

فنحن في هذا والشعوب الاخرى سواء ، لاننا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقته الحرب في أية لغة من اللغات ، بل القحط الشعري يبدو في كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً الى روح العصر الذي نعيش فيه . وقد يكون النثر الفني صيغة أوفق لاختباراتنا الشعرية في هذه الايام

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهي ان الشعراء يخاطبون المرأة في قصائدهم بضمير المؤنث ، وقد كانوا من قبل يستعملون في مخاطبتها الضمير المذكر وقد أقلع كبار الشعراء عن الاساليب المألوفة في المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء تجري أنهاراً كلما غمض امرؤ عينيه ليمضي الى بارئه . ولما كان الموت على رقاب العباد . . . !

أما النثر فهو الذي يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلاله ترتسم الشخصيات الادبية : وهو الرسالة الادبية الغالبة التي تبدع ابداعاً في هذا الطور الحاضر . لا أظن أن

اللغة العربية في أي عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا التنوع الذي نشهده اليوم . فالموضوعات الادبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهذيبية والفنية والتاريخية شيء مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يتناهى أحسن ما يكتب في صحف الغرب دقة وإحكاماً في رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة — لو كان هناك مسابقة — بين سائر أقسام الادب . ويجاري فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم في مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن الى أحسن . ومن دواعي السرور ان المرأة أيضا تعتلي المنبر وتخطب في الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى في موضوعات عصية . والملحمة والمسرحية في هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة في كل فن وخبر ، تبحث في الاجتماع والتاريخ والادب والفلسفة والاخلاق والعلوم الفنية . وغيرها وصف جميل للرحلات والاسفار ووصف لعادات الشعوب وخصائصها ووسائل تقدمها . وغيرها ذكريات شجية وترجمات عن حالات نفسية . وغيرها يبتكر أدباً للاطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب

. . . . والرواية كذلك تخصص هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر للنضج . لأن الرواية تخلق عالماً تاماً مستقلاً في ذاته لهُ خصائصه وسيكولوجيته ووجوه نزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنهُ في آن واحد . فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا به في هذا الوقت لانهماكهم في عدة موضوعات في آن واحد ، وعندما ننظر الى كثرة ما ينهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ما ينتجون

أما القصة القصيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً في القصة الوصفية ، وسبقها حتماً القصة السيكولوجية

ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء في وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد في مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتناثر شيء منهُ كل يوم ، ووجوده وحي كبير للأديب المستعد لتلقي هذا النوع من الوحي . وهذا الفن الروائي لو هو وجد بمصر يصبح فريداً في بابه بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا الحجاب نفسه وبسبب جميع الحوادث السيكولوجية التي تخلقها في النفس صعوبة اللقاء بين المحبين — ما دام الحب هو « الحبكة » التي لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية ويعلنهُ من غامض الأسرار

كذلك تفتقر الى النقد وإن كان ما يكتب في النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرمي إلى المجاملة والثناء وإما ينفي الطعن والتصغير . ويندر جداً البحث النقدي النزيه الدال على تمام

استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواح شتى . والغريب ان نفس الكتّاب الذين يجيدون في نقد كاتب غربي وتحليل شخصيته يكونون أقل اجادة وبخاصة أقل اصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندي ان الناقد البارع روائي على نوع ما وان الرواية والنقد ان هما تحاذيا اليوم في تخلفهما فسيكونان كذلك متحاذيين في تقدمهما . لان الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هي نفس خصائص مؤلف الرواية

الأدب الشعبي أو أدب العامة

في مصر أدب يجب أن لا يهمل . هو أدب العامة الذي ندر من عني به من الأدباء ، مع أنه قادر على اخراج جنى خصيب طلي لو اهتم كل كاتب بحكايات مديريته واقليمه فدوّن ما يتناشده الشعب الساذج في حفلات الاعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلك الادب في ازدهار ، أعني الزجل ، الشعر العامي الجميل الذي يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية طعمة التخاطب العادي والحادثة اليومية . وقد تألفت حديثاً « رابطة الزجالين » قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية — أخذ الله بيدهم جميعاً !

ان لكل اقليم بيانه الادبي المروي الذي يترجم عن الروح القديم في أساطير وأناشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية منقولة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، وتنهدات شعرية ذات سحر مستغرب حنان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه القيم وصبره واحتماله وتحدث عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الالحان لأنها سائرة شيئاً فشيئاً الى النسيان والفناء

(٤) الفن

الادب النثري أرق الفنون جميعاً وأنضجها وان كان بعض الفنون أوسع رواجاً في الجمهور وأقرب الى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها :

(١) — التمثيل . (٢) — النحت والرسم والتصوير . (٣) — الموسيقى

التمثيل

هذا أظهر الفنون في مصر تقدماً وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الادوار التي تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت ان تبعث فيها نفحة حيوية غنية

والتمثيل يرتبط بالادب وبالتأليف المسرحي وبالحركة الفكرية والاجتماعية وبتطور اللغة . فنطق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية في تقدم محسوس . وقد ترجمت الى العربية روايات من غرر الادب المسرحي في العالم فجاء بعضها متطابقاً والاصل الذي نقلت عنه ، و«مصّر» غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسخ غيرها مسخاً . وقد عني جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيماً ، وكان للمرحوم

شوقي بك الفضل في استيحاء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها في روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحي الآن في حالة التكون . والنقاد المسرحيون أبرع في ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة

وقام في الاعوام الاخيرة التمثيل السينمائي يسابق التمثيل المسرحي وهم الممثلون في المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون في ادخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها — في كل رواية سينمية تقريباً مع عرض بعض العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة . ولكن الى الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكولوجي والفني . بيد أنه يمكن البت في أن التمثيل السينمي المصري لن يقف عند هذا الحد

النحت والرسم والتصوير

باستثناء فوائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحي من حيث كمال الصنعة ونضج الفكرة — يمكن ترتيب المنتوجات في هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحي وقبل الفن الموسيقي . في المعارض السنوية الرسمية كما في المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدي الى شخصيات فنية هي على ثقة من وحيها ومن مقدرتها في اتقان الصنعة معاً ؛ فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام في احكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة في تزايد . وليس التقدم ليبدو في الكمية وحدها بل في الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا أول معرض أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن الى الآن يستوحي الصناعة الاوربية والفكرة الاوربية فالفنانون يميلون الى اخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطلق يوماً الورانة القديمة الكامنة في فناني هذه البلاد فيبتكرون فناً حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى

الموسيقى الوترية أرقى من الموسيقى الصوتية . فمن العازفين من يعزف بفطرته الموسيقية وبسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الاساليب الحديثة التي روجها نادي الموسيقى الشرقي من ضبط الالحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية في الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل في تعليم الموسيقى العربية

يتسنى لك أن تسمع من بعض « التخوت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من الافراد العازفين على مختلف الآلات — عزفاً هو في منتهى الجودة والاتقان . لولا أن مجموعة الالحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة وليس من اليسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها.

فكلهن يتشابهن فيما بينهن ، مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذي ألف فيها التنوع والتفنن والتلوين الى مدى لا يحد

أما اقرب الفنون الى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد إقبالاً منهم على أية حفلة فنية أخرى ، ويرون في الحفلات والسهرات نقصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء ويلق في جوها عاطفة الشجن الشرقي التي لا توصف. انما ترتكن الموسيقى الغنائية في مصر على صوت المغني اكثر من ارتكانها على فن الغناء . وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلاّ ان أحسن ما تنشده في نظري هو الادوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . واكثر ما يسمونه « تجديداً » في الغناء خير له أن لا يكون . لان بعضه مقتبس من الموسيقى الغربية التي لا تعتبر من الفن في شيء بل هي من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتباطؤ وإعادة وتكرار . ما زالوا يمدون في الآهات وقتاً طويلاً جداً ويعيدون « يا ليل يا عيني » في تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لاعصاب تتشمت للطرب المحكم . بيد أن الجمهور يحب ذلك التطويل المخدر للاعصاب ويستلذه ، والمنشدون عاشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يثقفون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازدهار تلك العاطفة ولنهاضها من تثاقلها الدهري . وعلى ذلك ما زال العاشق في الاغاني يسهر الليل مناجياً النجوم موضوع حسرته وجواه ؛ وما زال قلبه يذوب وروحه تكتوي بنار الغرام . والمحبوب — ما أقساه ! — لا يرحم المتيم المسكين ! والعذول — لحاه الله ! — ما زال واقفاً بالمرصاد يريد الايقاع بالعاشقين !

والمغنون يحملون تفرسهم فوق طاقتها لأن كلاً منهم يأبى الا ان يكون منشداً وملحناً في آن واحد ، وهو أمر لا يتفق مع قانون تقسيم العمل ولا مع الموهبة الفنية . فالانشاد شيء والتلحين شيء آخر . وقد يكون الملحن صاحب صوت غير حسن وغير قابل لتوقيع المطرب . ولم يشذ عن هذه القاعدة من كبار الموسيقيين في الغرب الا النفر اليسير

ولكن ما لا ينكر هو الجهود العظيمة التي يبذلها أهل الفن . وان لم يبد الى الآن شيء يصح أن يسمى تجديداً بمعنى التقدم في نظر الناقد الخبير فذلك راجع الى صعوبة هذا التجديد في موسيقى لا قائمة لها الا بالنغم فقط ولا تقبل طبيعتها التطرق إلى فن اصطحاب الانغام الذي تقدمت فيه موسيقى الغرب شأواً بعيداً . مهما ضاعفت الآلات في الاركسترة أو ضاعفت الأصوات في النشيد فأنت لا تكون الا مقوياً النغم الواحد ومفخمه . وهنا مشكل كبير لا حل له إلا بتنويع النغم تنويعاً بارعاً ينزع عنه ما يرافقه عادة من التراخي والملل ، على أن يبقى له النكهة الساحرة ذات العوارض الخفية الدقيقة التي تحتفظ للموسيقى الشرقية بطبيعتها الخاصة . ثم يجب الاكثار من الاناشيد الحماسية في موضوعات مشوقة تستولي على قلب الجمهور وتعلمه

التجاوز عن الموضوعات الغرامية الكثيرة إلى ما لا صلة له بالعشق والغرام والدلال والنوح

الخلاصة

الخلاصة ان الحركة الأدبية والفنية في مصر شيء ذو وجود محسوس ، في بعض نواحيه تقدم وفي بعض نواحيه تأخر ، ونواحيه الاخرى بين بين . غير أن النشاط لا يمكن إنكاره

الصورة التي رسمتها هنا مطابقة للواقع في تقديري . وأنا لم اعتبر في الأدب والفن الا كونهما تعبيراً عن الروح الجديدة الناجمة عن اليقظة القومية ، هذا التعبير الفني والادبي الذي هو من أدل الدلائل على ثقافة قوم وحضارتهم وعلى مبلغ ما اكتمل من تكوّن مجتمعهم . والفن والادب يدلان على أن المجتمع الجديد هو فعلاً في حالة التكون . وهذه الحركة سائرة الى الامام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشتراك اقتصادياً وفنياً وأدبياً وسياسياً وعلمياً في جميع المشاكل الطارئة على العالم

عندما نقول «قديم» يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعند ما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكن الموضوع في نظري أبعد مدى واكثر ارتباكاً . إذ ليس من بلد كمصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فمن العناصر الفرعونية الى العناصر المكدونية إلى اللاتينية فالاغريقية ، فالعربية بتنوعها العديد ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، الى عناصر اوربا الجديدة كلها تقريباً ، الى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى — جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصهر في الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين تزاوجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يتزاوجون الشعوب الغربية ، وهذا الامر — على ما يستوجبه من الانتقاد في بعض الوجوه — يصب الدماء الشتيتة في دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله في حالة « التمصر » . وقد عرف دائماً لمصر السحر في تحويل ما يقبل عليها الى جزء منها دون أن تفقد فيه شخصيتها العميقة . وفي هذه الثروة الزاخرة من الوجهة الادبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحيبة الجوانب ، متعددة النواحي ، غنية نبيلة لا نبالغ في القول انها تستطيع أن تنتج نوعاً خاصاً من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل

وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطىء الذي يتطلب التجديد في هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أي اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة في وسعها أن تحاذي العقليات الغربية وتتفاهم وإياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هي ولا يمكن أن تكون . لأنها — وفي هذا أهميتها — مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفسية الانسانية

« يتبع »